

## الفصل الرابع

بيت المقدس والحروب الصليبية

obeikandi.com

زحفت جموع الصليبيين من أوروبا، تثير حميتهم خطب البابا فى اجتماعات مسيحية حاشدة، ويتقدمها رهبان ونسك يذفعهم حماس دينى متعصب<sup>(١)</sup>.

عقد الباب أوربان الثانى مؤتمراً فى كليومونت فى فرنسا، وخطب فى الناس خطاباً أثار مشاعرهم ، متحدثاً عما يلقاه الحجاج المسيحيون من عسف أولئك المسلمين الذين يحكمون بيت المقدس وفيها قبر المسيح . . ويحكمون فلسطين وفيها بيت لحم حيث ولد المسيح . فسالت الدموع وتعالى الآهات، وراح الناس يقسمون أن يهبوا لتحرير تلك الأماكن المقدسة من أولئك المسلمين .

وراح الباب يعد أولئك الذين نذروا أنفسهم لاسترداد القدس أسخى الوعود، ووعد كل من يترك أهله وبلده ويمضى على وجهه قاصداً القدس صكاً من صكوك الغفران . . وكان المسيحي حينذاك يعتقد أن إذا حصل من الباب على صك مختوم بخاتم الكنيسة، غفرت ذنوبه وضمن جنة المقيم . .

وأصدر مؤتمر كليومونت سنة ١٠٩٥ قراراً بإعلان الحرب الصليبية . . وتحركت الجموع الهائلة . . آلاف من الرجال والشبان، ومن الشيوخ والصبيان، وحتى من النساء، وتقدمهم نفر من القسس والرهبان .

(١) القدس - عبد الحميد الكاتب

فهناك «بطرس الناسك» يسير حافي القدمين.. وقد كست وجهه لحية شائبة شعشاء، وتسربل بملابس مهلهلة رثة، حاملاً الإنجيل، رافعاً الصليب.. ووراءه حشود من الناس وقد حمل كل منهم ما تيسير له من سلاح، سيفاً أو خنجراً أو درعا وسهاماً.. وساروا على أقدامهم وفوق دوابهم، من فرنسا وألمانيا والنمسا، وعبروا المجر وبلاد البلقان، متجهين إلى القسطنطينية حيث تقوم الكنيسة المسيحية الأخرى، كنيسة الرومان الشرقيين.

وهناك «التر المفلس»، زعيم الغوغاء المعدمين، الذين كانوا يقاسون الفقر والجوع في بلاد أوروبا، فقد أجدت الأرض وقلت الأرزاق بسبب الحروب التي لا تنقطع ولا تهدأ بين أمراء الإقطاع.. فسارت حشود من الدهماء الفقراء متطلعة إلى الشرق وما فيه من خيرات.. وقد أقنعهم زعيمهم والتر المفلس بأن لا خيار لهم إلا أن يموتوا جوعاً في أوروبا، أو يموتوا شرفاً في سبيل الصليب.. أما إن انتصروا فسيكون لهم نعيم الدنيا، وغفران الذنوب أيضاً..

وسار هؤلاء الفقراء، وهم يعيشون في الأرض سلباً ونهباً.. ولم يبالوا بأنهم يسيرون في بلاد مسيحية.. فنهبوا القرى وما فيها من أقوات.. بل قتلوا في طريقهم آلافاً من المسيحيين.. مما يدل على أن الحرب الصليبية كانت وراءها دوافع مادية، ظهرت من هؤلاء الجياع الذين دفعتهم بطونهم، وظهرت على الأخص في تجار الموانئ الإيطالية الذين حملت سفنهم جموعاً أخرى من الصليبيين إلى

سواحل الشام وفلسطين، لأن أولئك التجار أرادوا أن يفتحوا طرق التجارة وأسواقها في بلاد الشرق التي كانت أغنى وأرقى من بلاد أوروبا.

دوافع مادية ودينية كانت من بين دوافع الصليبيين، وإن كان شعارهم هو الصليب، ودعواهم أنهم يرحلون ويحاربون بإرادة الله واسم المسيح ..

والتفت تلك الجموع عند أسوار القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية .. وكانت تعيش حينذاك تحت تهديد الأتراك السلاجقة، الذين هبطوا من أواسط آسيا، واكتسحوا فارس والعراق والشام، واعتنقوا الإسلام وتحمسوا لنشره بحد السيف، وسيطر ملوكها العظام على العالم الإسلامي، فاتحد تحت إمرتهم فترة دامت قرنين من الزمن ..

وكان الإمبراطور البيزنطي يمنى نفسه بأن يجد من هؤلاء المسيحيين القادمين من أوروبا عوناً له في محاربة الأتراك، فإذا به يجد جماعات من الدهماء والغوغاء، الذين لا يعرفون حمل السلاح ولا قدرة لهم على القتال .. فبعث إلى بابا روما رسائل يقول فيها، إن مصير هؤلاء المسيحيين هو الهلاك حتماً على أيدي المسلمين .. أما إن كنتم تريدون حقاً الوصول إلى بيت المقدس، فابعثوا جيوشاً منظمة، وفرساناً مدربين، يستطيعون أن يتصدوا للأتراك المحاربين الأشداء.

وعندئذ هب الكثيرون من أمراء أوروبا وفرسانها، وكونوا فرقا محاربة مدربة على القتال، ومزودة بأوفر السلاح.. وزحفوا بهاعبر بلاد أوروبا قاصدين القسطنطينة، ومنها إلى القدس.

وكان معظم هؤلاء الفرسان من فرنسا، وكانت هذه هي أول حملة صليبية ناجحة، ولهذا كان المسلمون يظنون أن جميع الصليبيين مسيحيون.. ومن هنا أطلقوا عليهم اسم «الفرنجة».

\* \* \*

لماذا فكر البابا، وفكر ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها، في القيام بالخراب الصليبية بعد أن انقضى أكثر من ستة قرون على دخول المسلمين بيت المقدس، وعلى فتح فلسطين والشام؟

لماذا لم يفكر الأوروبيون المسيحيون في استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين طوال تلك القرون الماضية؟.. ولماذا قاموا الآن يحملون السلاح، ويقطعون الآفاق قاصدين بلاد المسلمين بعد أن استقر فيها الإسلام أجيالا تلو أجيال، وبعد أن صارت القدس مدينة إسلامية خالصة، وإن ظلت أبوابها مفتوحة تستقبل الحجاج من المسيحيين؟

هل كانت الكنيسة المسيحية راضية بذلك الوضع طوال هذه القرون، ثم استيقظت فجأة على صيحة من الباب أوربان الثاني في سنة ١٠٩٥، فقرر المسيحيون الأوروبيون أن يزحفوا بجمعهم

وأسلحتهم ليستردوا ما ضاع منهم منذ أمد بعيد؟

لا... إن المسيحيين لم يكونوا قد نسبوا بيت المقدس منذ الفتح الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب، وهم قد رحبوا بالفتح الإسلامي في أول الأمر ليخلصهم من حكم الرومان وطفغيانهم ومظالمهم، ورأوا في عمر بن الخطاب وفي «العهد العمري» الذي أعطاه لهم صورة عظيمة من التسامح الديني ومن العدالة والاستقامة.. وبقيت كنائسهم محفوظة مفتوحة لصلاتهم وحجهم.

ثم مضى الزمن قليلاً، ورواح المسيحيون يتطلعون إلى استرداد بيت المقدس من المسلمين.. ولكن أنى لهم هذا، وقد ظل المسلمون دهرًا طويلاً أقوىاء أشداء، لا تقدر عليهم ولا تطمع فيهم أى من القوى الأجنبية؟.. فإن قوة المسلمين ووحدتهم وتماسكهم تحت خلافة إسلامية مهيمنة، مكن المسلمين من الاحتفاظ بكل أرض فتحوها في صدر الإسلام، بفلسطين وبالشام وبالعراق وبفارس وبمصر.. بل مكنهم أيضاً من الانتشار فيما وراء هذه البلاد من آفاق مترامية، حاملين راية الإسلام ليرفعوها فوق بلاد أخرى من أقصى الغرب في أسبانيا والبرتغال، وفي أقصى الشرق في الهند والسند وتخوم الصين، وفي الشمال حيث كندا ويفتحنون القسطنطينية ويقضون على ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عهد عمر بن عبدالعزيز.

وظلت هذه الوحدة قائمة، حتى بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وزالت هيبتها.. فقد جاء الأتراك السلاجقة من أواسط آسيا، واعتنقوا الإسلام، وصاروا أكثر الناس حماسة لهذا الدين، وأشدهم جهاداً فى سبيل إعادة وحدة المسلمين وتدعيمها.. وصارت الدولة الإسلامية، فى عهد «ملكشاه» السلجوقى، أكثر اتساعاً وأعظم قوة، مما كانت فى عهد الدولة العباسية..

ثم دار التاريخ دورته، وجاء عصر الضعف والتفكك والتخاذل، وانقسم هذا العالم الإسلامى الموحد إلى دويلات وإمارات عديدة.. وكانت هناك سلطنة العراق، وسلطنة الشام، وسلطنة حلب، وسلطنة أصفهان، وسلطنة خراسان.. وأخذت هذه الويلات يكيد بعضها لبعض، وتنشب بينها معارك القتال.. وأخطر من هذا ظهور الدولة الفاطمية، شيعة المذهب، ممتلئة بالحركة والحيوية، فلا تكتفى بأن تحكم مصر وما وراءها من بلاد المغرب الإسلامى، ولكنها تتطلع أيضاً إلى الشرق الإسلامى، تريد أن تفتحه وتبسط عليه سلطانها، مستعينة بالفرس الذين نبتت منهم جذور الحركة الشيعية، ومستخدمة من فى الشام والعراق من دعاة الشيعة.

وفى خضم هذه الخلافات وما صاحبها من معارك، ظهرت جماعات دينية تعتنق مذاهب غريبة، وتفرض نفسها على المسلمين وتحكمهم شراً وإرهاباً.. فهناك القرامطة يحكمون الجزيرة العربية، من مكة والمدينة إلى كل المناطق التى تمتد على الخليج العربى..

وهناك جماعة الباطنية، وتشتهر فرقتها المعروفة بفرق الحشيشية أو الحشاشين، وقد سيطرت على بقاع كثيرة من الشام، وصارت لها قلاعها وحصونها، ولها أيضاً فرقتها الإرهابية التي اغتالت عدداً لا يحصى من الأمراء والسلاطين!

وانقسم العالم الإسلامي، بل انشطر انشطاراً خطيراً .. وتجسم هذا فى الصراع والقتال الذى عم الساحة الإسلامية، وخاصة بين دولة السلاجقة ودولة الفاطميين .. وهو صراع بين قوتين سياسيتين، عسكريتين، تريد كل منهما أن تقهر الأخرى، وأن تفرض زعامتها على العالم الإسلامى كله .. بينما هناك قوة أخرى من الغرب ترى أن هذا الانقسام، وهذه الفوضى فى العالم الإسلامى، هو الذى يفتح لها الطريق إلى بلاد المسلمين .. ولهذا، بدأت الحركة الصليبية متزامنة تماماً مع حالة الضعف والتخاذل، وموجات الفوضى والاضطراب، التى غمرت العالم الإسلامى شرقاً وغرباً.

لو عبرنا عدة قرون من الزمن، ووصلنا إلى نهاية القرن التاسع عشر، لوجدنا أن التاريخ يعيد نفسه .

إن الغزوة الثانية للعالم العربى والإسلامى، وهى الغزوة الصهيونية قد بذرت فكرتها الأولى، وبدأت محاولاتها التمهيدية، فى وقت كان فيه العرب جميعاً، والمسلمون جميعاً، غارقين فى نوم عميق، تنتابهم فيه أضغاث الجهل والضعف والاستكانة .. وكانوا

جميعاً لا يملكون من أمرهم شيئاً، فبلادهم تقاسمتها فيما بينها عدة دول أوروبية، بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وإيطاليا.. ومازالت هناك دول أوروبية أخرى، ألمانيا والنمسا والجنوب.. وحتى ما كان مستقلاً من البلاد الإسلامية، قد كان استقلاله صورة ووهماً، فإيران المستقلة كانت خاضعة للنفوذ الروسى من ناحية، والنفوذ البريطانى من ناحية أخرى. وأما الدولة العثمانية الضخمة، فقد شاخت وترهلت وتفككت أوصالها، وصارت تسمى برجل أوروبا المريض، الذى يجتمع الأقوياء فى مؤتمراتهم ليتفلقوا على تقسيم تركته فيما بينهم.

فى تلك الظروف، تحرك «المشروع الصهيونى» الذى نعرفه الآن. أما الفكرة الصهيونية، أى فكرة استيلاء اليهود على فلسطين، فإنها فكرة قديمة، وقديمة جداً لعلها ترجع إلى ذلك الزمن البعيد، حين خرج اليهود من فلسطين.. وقد ظل اليهود يرددون فى صلواتهم أنهم لا ينسون أورشليم، وأنهم إليها عائدون.. ولكن الأمر لم يتعد طوال هذه القرون دعاء فى الصلاة، وحلماً غامضاً بالعودة إلى جبل صهيون.

فلما صار العالم العربى والعالم الإسلامى إلى ما صار إليه، فى آخر القرن التاسع عشر، خرجت الفكرة الصهيونية من دائرة الصلوات والدعوات، إلى مجال التحقيق والتنفيذ.. ووضع أبر الصهيونية الحديثة، تيودور هيرتزل، فى سنة ١٨٩٧ على وجه

التحديد، كتابه «دولة اليهود» الذى كان بمثابة حجر الأساس فى المشروع الصهيونى الكبير.. وأخذ يكتب فى جريدته فى النمسا ويروج لفكرته ومشروعته، ويطوف العواصم، ويقابل الحكام والوزراء. وتعارض الحكومات فى إقامة الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى والإسلامى.. أما العرب والمسلمون فلا وجود لهم فى حسابه!

تصور مثلاً ما كتبه هيرتزل فى مذكراته، فى فصل عنوانه «مشروع العريش».. لقد ذهب إلى لندن وتفاوض مع الحكومة البريطانية، طالباً إعطائه سيناء لينشئ فيها الدولة اليهودية، ويتخذ من مدينة العريش عاصمة لها.. ووافق رئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير رئيس وزرائها، بطرس باشا غالى، فقال له: إن السيادة على سيناء للدولة العثمانية، فأذهب إليها وتفاوض معها، فهى التى تستطيع أن تعطيك سيناء.. ولولا أن لورد كرومر، الحاكم الفعلى لمصر، اعترض على المشروع الذى يقتضى مد فرع النيل لرى سيناء، فى وقت كان فيه ماء النيل لا يكفى لرى أرض الدلتا والوادي الضيق، لثم إنشاء الدولة اليهودية فى سيناء، منذ سبعين سنة أو أكثر..

إن هذه الغزوات الأجنبية، صليبية كانت أو صهيونية، لا تنبت ولا تتحقق إلا عندما تضعف الأمة العربية وتهون.. وتصير حريتها وكرامتها وحقوقها سلعا تباع وتشتري، ويصير حكامها نهبا

للاطماع والأهواء والنزوات .. وعندئذ يسرى الضعف وتجري الاستكانة في عروق الحكام وعروق المحكومين جميعاً.

هكذا كان الأمر عندما قامت فكرة الحرب الصليبية قديماً، وكذلك كان الأمر عندما قامت فكرة الصهيونية حديثاً ..

\* \* \*

ولنعد إلى الحرب الصليبية .. فنجد أنها بدأت عندما تحولت الدولة الإسلامية الواحدة إلى عديد من الدويلات والإمارات .. فصارت المدينة الواحدة دولة، وصار الإقليم الصغير دولة، وصارت الغارات والمعارك بين هذه الدويلات الصغيرة هي محور حياة الحكام، وهي أيضاً مصدر مشاكل المحكومين وهمومهم ..

وبلغ هذا التفكك أقصاه، في نهاية القرن الخامس الهجري، أو نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وعندئذ قامت فكرة الحرب الصليبية، وبدأت جموع الصليبيين وجيوشهم تزحف إلى الشرق .

ووقعت معارك كثيرة بين المسلمين المدافعين والصليبيين المهاجرين، وقد انتصر المهاجمون في كل معركة تقريباً، وانهزم المدافعون في كل معركة تقريباً .. وكانت المدينة الإسلامية أو الدويلة الإسلامية لانصمد أكثر من أيام أو أسابيع أو بضعة شهور .. فلم يمض أكثر من أربع سنوات، منذ أطلق الباب صيحته إلى الحرب الصليبية، إلى يوم أن دخل الصليبيون مدينة القدس .

منذ دخلوا القدس فى سنة ٤٩٢هـ، وكان هذا فى يوم من أيام شهر يونيه سنة ١٠٩٩.. سوف نرى أن الذين جاءوا يحملون الإنجيل ويرفعون الصليب قاصدين القدس، لم يتوقفوا عند القدس، بل راحوا ينتشرون فى أرجاء المشرق الإسلامى، ويقىمون فيه ممالك مسيحية.. فكانت هناك مملكة القدس المسيحية، ولها ملك من أوروبا وبطريق من أوروبا.. وكانت هناك ثلاث ممالك مسيحية أخرى فى المشرق.

ثم اتجهوا إلى مصر، لأن الهدف لم يكن مقصوراً على القدس.. بل الهدف الحقيقى هو ضرب الإسلام، وهزيمة المسلمين، وتمزيق العالم الإسلامى كله.